الاقتباس في الشعر الصوفي المملوكي: دراسة في الوظائف والدلالات

م. د. جمال حمد مطلك جراد

المديرية العامة لتربية محافظة الأنبار

14jhmd608@gmail.com

تاريخ الاستلام 2025/8/7 تاريخ القبول 2025/10/21 تاريخ النشر 2025/12/22

الملخص:

يتناول هذ البحث صيغ الاقتباس كافة التي وردت على ألسن شعراء العصر المملوكي، وما شكلته من حضوري فكري ناغم مصطلحات نقدية حديثة كالتناص وما شابه ذلك. إذ شكّل الاقتباس الشعري عند شعراء العصر المملوكي نمطًا هاما للكشف عن حقيقة الارتباط الأدبي للعصر المملوكي ببقية العصور الأدبية؛ إذا ما سلمنا بأن نمط الشعراء المملوكيين يشابه كثيرا شعراء العصور الأدبية الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الاقتباس، العصر المملوكي، الأغراض الشعرية.

Quotation in Mamluk Sufi Poetry: A Study of Functions and Connotations

Dr. Jamal Hamad Mutlaq Jarad

Ministry of Education - General Directorate of Education of Anbar Governorate

Abstract

This research examines all forms of quotation used by Mamluk poets, and the intellectual presence they evoked, incorporating modern critical terms such as intertextuality and the like. Poetic quotation among Mamluk poets constituted an important pattern for revealing the true literary connection between the Mamluk era and other literary eras, provided we accept that the style of Mamluk poets greatly resembles that of poets from other literary eras.

Keywords: quotation, Mamluk era, poetic purposes.

المقدمة

يشكل الاقتباس فناً بلاغياً بديعياً مهماً في أشعار الصوفية؛ ذلك أن الصوفية كثير ما يقتبسون من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وقصص الأنبياء والرسل وقصص القرآن الكريم، وبهذا يكون الاختلاف بين الاقتباس والتضمين من جهة المادة المأخوذة، إذ الاقتباس يقاصر على الأخذ من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

ففي الجذر اللغوي يقال: قبست منه ناراً أقبس قبساً فأقبسني أي: أعطاني منه قبساً، وكذلك اقتبست منه ناراً واقتبست منه علماً أيضاً أي: استفدته[1]، وبهذا يدور في المعنى اللغوي في معنى الأخذ والاستفادة من النصوص الخارجية وتوظيفيها نصياً، بحيث تكون ظاهرة وواضحة للقارئ.

أما الاقتباس في اصطلاح العلماء، فقد عرّفه الرازي (ت311هـ) بالقول: ((هو أن تُدْرَجَ كلمةٌ من القرآن أو آية منه في الكلام تزييناً لنظامه وتضخيماً لشأنه))[2]، وعرّفه شهاب الدين الحلبي(ت725هـ) تعريفاً أكثر وضوحاً حينما قال: ((هو أنْ يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث ولا ينبّه عليه للعلم به))[3].

وعرّفه ابن قيم الجوزية (ت751هـ) تعريفاً يخلط فيه بين الاقتباس والتضمين لكن يحدده في الأخذ من النص الخارجي: ((ويُسمى التضمين، وهو أن يأخذ المتكلم كلاماً من كلام غيره يدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الذي أتى به أو ترتيب، فإن كان كلاماً كثيراً أو بيتاً من الشعر فهو تضمين وإنْ كان كلاماً قليلاً أو نصف بيت فهو إيداع))[4].

المبحث الأول

الاقتباس من القرآن الكريم

استعمل الشعراء الصوفية في العصر المملوكي تقنية الاقتباس البلاغية، التي تحقق للنص قيمته المعنوية والتأثيرية، من ذلك قول إبراهيم الدسوقي (ت676هـ) مضمّناً شعره الصوفي عدة قصص نبوية وقصص القرآن الكريم[5]: (الطويل)

أنا كنت مع إدريسَ لما رقـــا العلا وأسكنَ في الفردوسِ أحـــسنَ بقعةِ

أنا كنتُ مع عيسى وفي المهدِ ناطقاً وأعطى داؤود حـــــلاوةَ نـــعمتي

في هذا النص يظهر الاقتباس المتعدد والمكثف الذي يريد الشاعر من خلاله بيان الحب الإلهي الذي أصبح جزءاً لا يتجزأ من روحه، معتمداً على ثيمة (الأنا) التي يستعملها الصوفي لتمييز نفسه عن الآخرين، ليس من جهة التكبر بل من جهة بيان المكانة والاختلاف الذي تنماز بها شخصيتهم.

وثيمة (الأنا) هي شكل من الغموض والغرابة اللذين هما عنصران متكافئان في الشعر الرمزي ((إذ إن الوضوح في عرف أكثر الشعراء الرمزيين، يكسب الشعر برودا، وجفافاً تتلاشى فيها روعته، وأما المألوف فإنه لا ينسجم وعنصر الأبداع الفني في القصيدة، ويعتقد هؤلاء الشعراء أن لذة اكتشاف معانِ الشعر ومراميه المغلقة الغامضة هي من روح التذوق الفني وجوهره))[6].

ففي البيت الأول اقتبس قصة وآية النبي إدريس (عليه السلام) وبالتحديد قوله تعالى **(واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيا ورفعناه مكاناً عليا)**[7]، ليعطي إشارة أن الحب الإلهي هو طريقه إلى الجنة رفقة الأنبياء والصالحين، ثم في البيت الثاني يقتبس آية وقصة عيسى (عليه السلام) ليعطي إشارة ارتباط الحب الإلهي بالمعجزات الإلهية.

وبهذا يكون الاقتباس عندهم ليس وسيلة فقط بل غاية معنوية تعزز الحب في قلوبهم، ورغبتهم في جعل هذا الحب منهجاً وطريقاً لحياتهم، فيظهر عدم اقتصارهم على الاقتباس من القرآن الكريم بقدر ما يحاولون الإفادة من قصصه وما يرتبط بها من أحداث ومواقف.

ويسترسل إبراهيم الدسوقى (ت676هـ) مضمّناً شعره الصوفي عدة قصص نبوية وقصص القرآن الكريم[8]: (الطويل)

أنا كنتُ مع نوحٍ أما شـــــــهدَ الورى بحاراً وطوفاناً على كـــــــفِّ قدرتي

أنا كنتُ في رؤيا الذبيحِ فداؤه بـــعين عناياتٍ ولطـــــــــــــــفِ حقيقتي

أنا كنتُ في العليا ونورَ مـــــــــحمدٍ وفي قاب قـــــوسين اجتماعُ الأحبةِ

فالصوفية لهم استعمالات خاصة في أشعارهم، ففي اقتباساتهم وتضمينهم للأشعار يسعون إلى إبراز نقطة أساسية وهي إظهار طريقتهم في الحب الإلهي وكيف أنهم يقارنون كراماتهم بعد ارتفاعهم بالمقامات بكرامات الأنبياء والأولياء، بمعنى أنهم يريدون بيان الدرجة التي وصلوا إليها من القرب والمحبة والصدق في ذلك، والأبيات السابقة تحمل على أكثر من وجه، فيمكن أن تحمل على مسألة الفناء عند الصوفية وهو الاندماج والانمزاج في حبهم الإلهي.

وبهذا يكون قول الشاعر في بداية الأبيات (أنا) قاصداً نفسه هو، ويمكن أن يحمل قوله على رحمة الذات الإلهية في مصاحبتها لكل الأنبياء ، وفي كل الأحداث التي مروا بها وكيف أنقذهم سبحانه وتعالى من كل تلك الأهوال والمصاعب ، كل هذه المعاني جعلها الشاعر في اقتباسه لعتبة قصة النبي نوح (عليه السلام) وقصة الذبيح إسماعيل (عليه السلام) لينتهي إلى الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، ويشير إلى اجتماع كل هؤلاء الأحبة في جنات الخلد معززاً نظريته (بالأنا) التي جعلها في مصاحبته لهم بحكم مذهب الحب الذي أوصله لهذه الكرامة.

فالاقتباس في هذه النصوص الصوفية كان فاتحاً للنص على عدة تأويلات منها ما يمكن أن يكون عقلانياً ومنطقياً، ومنها لا يمكن الإسهاب في تأويله حتى لا يقع مؤول النص في الخطأ والزلل.

ويقول حسن الرومي[9](ت684هـ) مازجاً العبارات القرآنية داخل المنظوم الشعري محققاً المعنى الصوفي[10]: (الطويل)

إلهي لك الحمدُ الذي أنت أهلـــه علىَ نعمٍ مـنها الهدايةُ للحـــــــــمدِ

صحيحاً خلقت الجسمَ مني مسلما ولطفك بي ما زالَ مذ كنتُ فـي المـهدِ

وكنتُ يتيما قد أحاطَ بي الـــرَّدى فآويتَ واستنقذتَ من كـــــلّ ما يُرْدِي

جعل الشاعر اقتباسه من النص القرآني متعدد الأشكال فقد لجأ إلى آيات تتحدث عن الفرج بعد الكرب والابتلاء وتتحدث عن الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى ورعايته للإنسان في كل الظروف والأحوال.

فعندما ذكر تعبير (مذ كنتُ فـي المهدِ) قدم للبيت الأخير الذي جعل الاقتباس فيه ما ورد في النص القرآني: (ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى)[11]، وساق الاقتباس من النص القرآني للحديث عن نفسه ومعاناته ووحدته التي تلاشت بالقرب من الله سبحانه وتحقق الحب الإلهي، ولاسيما في تعبيرات (وكنت يتيماً، فآويت، واستنقذت) وهذه تعبيرات قرآنية وظفها الشاعر في بيته وساق معانيها للتحدث عن التيه الذي كان به، قبل السير في طريق الصوفية.

إذ الحديث عن (اليتم) الذي أراده ليس أنه يتيم الأب والأم بل يتم البعد عن الحقيقة وعن طريق المحبة التي ينشدها الصوفية، وتعبير (فآويت) هو شكر الله تعالى على رحمته بهم وتوجيههم إلى محبته وطاعته والرغبة في التقرب منه عن طريق الحب الإلهي الذي هو مأوى الضائعين والمشتتين، ليختتم البيت بتعبير (واستنقذت) بمعنى: التحول من حال إلى حال ومن الأدنى إلى الأعلى من حال الشتات والضياع إلى عالم الرحمة والنور والتقى والهداية التي هي كرامات التصوف.

ويقول ابن الخيمي (ت685هـ) موظفاً أسماء السور القرآنية والإفادة من مضامينها الإيحائية[12]: (الكامل)

وأعدْ حديثك يا عــذولُ فإن فـيّ أثناءِ عذلك مـــــــا يسرُ سـرائري

واذا أثبْتُ مـــــــن الملامِ بفاطرِ كفرّتُ من ذكرِ الحـــــــبيب بغـافرِ

وأَمرتَني بســــــــــلوهِ وبتركِهِ حاشاكَ ما أنا طـــــائعٌ يا آمري

فقد استعمل الاقتباس في وصف السعادة التي يدخلها هذا الحب إلى النفس، فحديث الحب الإلهي الذي يتداول في حلقات الصوفية وحلقات الذكر عندهم هو ما يدخل السرور إلى النفس ويرتقي بها إلى المقامات التي يريدها ويأمل بها، وفي تعبير (بفاطرِ) هو اقتباس لبركة سورة (فاطر) التي تتلى في حلقاتهم، ةتقدم روحاً إيمانية تمزج بين القدرة والرحمة.

أما تعبير (بغافر) فكان اقتباس لإيحاء وكرامة سورة (غافر) التي أراد الشاعر في ذكر اسمها الإحالة إلى بركتها وترديدها في مجالسهم، فالمغفرة مع القدرة يتغنى بها الصوفية، وبالاقتباسين أراد دلالة العزة والقوة ودلالة الرحمة والمغفرة، فالاقتباس كان في أسماء السور القرآنية والإحالة بها إلى طبيعة الجلسات الصوفية وما يدور فيها من ذكر وحديث وعبادات.

ويقول ابن الوردي (ت749هـ) في الحب المحمدي مستعملاً الاقتباس من القرآن الكريم[13]: (الكامل)

مَنْ رامَ يحصي معجزات محمدٍ فيعدُّ موجَ البحرِ حـــينَ تموَّجا

مَنْ أُنزِلَ القرآنُ في أوصـــافِهِ أنا قاصرٌ عَنْ مـــدحِهِ متلجلجا

هلْ بعدَ يس وطه مـــــــدحةٌ في الهامشيِّ وآلِهِ سـفنِ النجا

فيظهر في هذا النص أن الشاعر يقتبس من النور المحمدي، بمعنى: يأخذ الصفات الكريمة التي تتعلق به، مستنداً على اسماء النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) واسماء السور التي تتعلق بوصفه الشريف، فاقتبس منها (**يس**) و(**طه**) ليدلل على الرحمة التي ترتبط بهما، ومصطلحات استعمالات الصوفي هي في الواقع ((مرتبطة بالوجود الإنساني ذاته...))[14].

وهذه السور كانت متعلقة ومبتدأة بتكريم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ففي سورة (يس) كانت بدايتها (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم)[15]، وسورة (طه) التي كانت بدايتها (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)[16]، فنلحظ أن الشاعر انتقى هذه السور من منطلق خطابها المباشر في البداية للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وتخصيص الصفات الكريمة والتكليف الإلهي به.

وبهذا يكون اقتباسه لأسماء السور المتعلقة بالنبيّ الكريم وانتقاء بعضها، هو لإيصال فكرة المكانة التي جعلها الله سبحانه وتعالى مخصصة في رسوله الكريم، فرسالته هي للرحمة والهداية ونجدة الناس

وتصحيح مسار الإنسان والخروج به من الظلمات إلى النور، والصوفي دقيق بالانتقاء والتوظيف النصي، ولاسيما في الاقتباس من القرآن الكريم وطرق الدعوة له.

من ذلك قول نجم الدين بن سوار الدمشقي(ت677هـ) مستعملاً انزياح الاقتباس من القرآن الكريم[17]: (الكامل)

يا نوقُ مـــــا دون الأثيل معرَّسُ جِدّي فصُبحُكِ قد بـــدا يتنفسُ

واستصحبي عزماً يُبلِّغكِ الحِـــمى لتظل تَغبطكَ الجـــواري الكُنَّسُ

في هذا المديح المحمدي يشتغل الشاعر في الاقتباس القرآني الذي يضفي ويعطي الصفات الكريمة، ففي تعبير **(فصُبحُكِ قد بدا يتنفسُ)** اقتباس مباشر من قوله تعالى في سورة التكوير (آية: 18) **(والصبح إذا تنفس)**، والاقتباس هنا ليس للآية فقط بل لبيان النور المحمدي والرسالة المحمدية التي أخرجت الناس من الظلمات إلى النور ومن الخوف إلى الأمان.

ولهذا للصوفي لغتان ظاهرة وخفية إذ ((القراءة الظاهرية الحرفية لا تقول شيئاً، فالنص بالنسبة لها إما هرطقة على المستوى الفني والجمالي، وإما مروق عن الدين عن المستوى العقيدي، وإنما القراءة التأويلية هي التي تمنح النص فاعليته، باعتبارها انزياحاً عن المتعارف والمعهود))[18].

وهذا الاقتباس يرتبط عند الصوفي بالبحث عن الحب، بمعنى: ليس البحث فقط عن الارتقاء الفني لنصه، واضفاء سمة الجمال فيه، بل يشتغل في مساحة تكثيف الصفات الكريمة للرسول (صلى الله عليه وسلم) وربطها بالنصوص القرآنية الكريمة، فالصبح بجماله ونقاءه وصفاءه هو صورة مشرقة ومخصصة باللقاء مع الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم).

فهو هنا يريد وصفة الذهاب إلى (المدينة المنورة) واللقاء بالرسول الكريم، فيقتبس ما يعزز الصورة وينقل الحالة، فنفسه كانت مظلمة تحتاج إلى الاشراق والنور، وليس هناك أسمى وأنقى من صفاته (عليه الصلاة والسلام) لتكون اشراقاً للنفس وصورة للمحبة وتنقية للأبدان من الأدران.

ويقول البوصيري (ت695هـ) مستعملاً انزياح الاقتباس من القرآن الكريم[19]: (البسيط)

ومذ هدانا إلـــــى الإسلام مبعثُـه دهى الشياطينَ والأصـــنام تجديلُ

وانظر سماءً غدتْ مملوءةً حرساً كأنَّها البيتُ لـــــما جاءَه الفيلُ

ينطلق الشاعر في هذا النص من اقتباس آيٍ من القرآن الكريم معبراً ومشيراً إلى اللحظة التي تغير بها مصير البشرية ببعثته المباركة، ولهذا اعتمد في إيصال هذه الصورة على اقتباس من معنى قوله تعالى **(وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين)**[20].

فأراد من هذا الاقتباس تأكيد معاني التوحيد وتهديم الاصنام واخراج الناس من عبادة الأحجار إلى الرؤية القلبية والاشراق الروحي، فكان الاقتباس لهدف وغاية داخل النص، منها الدعوة إلى الحب المحمدي عن طريق الصفات والسمات التي ارتبطت ببعثته (عليه الصلاة والسلام).

إذ كان ((للثقافة الدينية أثرها القوي في تشكيل ذوق صفوة المتأدبين من أهل العصر المملوكي والقرآن الكريم جوهر الثقافة وكتابها المعجز، وقد راح الأدباء يحتذون بيانه منذ أن نزل الوحي فلا غرابة أن يصبح الاقتباس من القرآن الكريم والاعتراف من فيض بيانه وتصويره ديدن أدباءنا ويرونه معياراً من معايير البلاغة والفصاحة))[21].

والاقتباس من القرآن الكريم وقصصه مهم عند الصوفي وجزء لا يتجزأ من طريقته في الدعوة لأفكاره ومنطلقاته الدينية، ولهذا نلحظ عنايتهم بالمناسبة، أي المناسبة في الأخذ وتضمين النص، إذ اللغة الصوفية لغة تدلل على أنه ((علم يختلف كليّاً عن العلوم الأخرى لأنه أمر باطن لا يطلع عليه أحد لأن التجربة الصوفية تجربة فردانية ذاتية معاشة لا يمكن نقل مضمونها ومحتواها إلى الآخرين ولا يمكن وصفها أو التعبير عنها))[22].

فلا يريدون الاقتباس لمجرد الاقتباس الذي يضفي سمة ولمحة جمالية على النص، بل يريدون أن يكون هناك تأثير ديني بالمتلقي ومعرفة المعاني الخفية التي توضح صورة الدعوة النبوية الشريفة، والغاية الأسمى التي عبرت عنها.

يقول اليافعي (ت768هـ) في المديح النبوي الذي يمدح فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) مقتبساً من القرآن الكريم[23]: (الطويل)

عليكَ صلاةُ اللهِ يا مـــــــلجأَ الورى إذا أقبلتْ يومَ الحـــــسابِ جهنمُ
وراموا شفيعاً يستغاثُ بـــــــــجاههِ له شرفُ العليا وجيهُ مـــــــكرمُ
وقالوا لأهلِ العزمِ في الرسلِ من لـــها فليس سواكمُ يا أولى العزمِ بعـزمُ
فحينَ الكرام الرسلُ عـــــنها تأخروا أتيتَ إليها بالنـــــــــــدىَ تتقدمُ

فاليافعي يركز على قضية الإنسان الكامل، والرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) اصطفاه الله سبحانه من البشرية، وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين وخصّه بمعجزاتٍ لم يُسبق لها أحد من قبله، كل هذه الكرامات شكلت مادة خصبة للصوفية للتغني بالرحمة التي شملت البشرية ببعثة الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم).

فجاء الاقتباس في تعبير (وراموا شفيعاً يستغاث بجاهه) الذي يحيل إلى قوله تعالى: **(وجئنا بك شفيعاً على هؤلاء)**، ثم جاء قوله في (وقالوا لأهلِ العزمِ في الرسلِ) تصوير مشهد الطلب من (أولى العزم من الرسل) وهم (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، الرسول محمد) عليهم الصلاة والسلام، الذين هم أهل الصبر وتحمل المشاق، واقتباسه كان لبيان مكانتهم وعزمهم وقوتهم، لكن حينما أفرد الرسول الكريم على حدا، وجعله فوقهم في القوة والرحمة والصبر وتحمل المشاق.

فكان الاقتباس فناً أراد الشاعر عن طريقه الولوج إلى توضيح المكانة العظيمة للرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وشكل الترديد جسر انتقال إلى غايته، ولهذا قال البغدادي (ت571هـ) عن الاقتباس بأنه قد يحمل على التعطف[24]، والتعطف أراده الشاعر في رغبته القرب من الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم).

وفي قول اليافعي (ت768هـ) يظهر انزياح الاقتباس من القرآن الكريم[25]: (الطويل)

كرزق أتى من قبل محراب مريم بلا تعب يلقى وجاء بـــــعد بالتعـب

ففي هزها للجذع بعـــض مشقة ولو لم تهز الجذع ما ساقط الـــرطب

هنا يريد الشاعر التعبير عن الحاجة إلى الجهد والتعب في العبادة والمناجاة حتى تكون النتيجة هي الثواب، وفي الوقت نفسه يريد الشاعر أن يثبت فكرة أساسية وهي أن المحبة الصوفية القلبية لا تتحقق بصورة بسيطة ودون جهد، بل تحتاج إلى السهر والتعبد والمناجاة وترك الراحة.

ولهذا اقتبس من قوله تعالى: **(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا إن الله يرزق من يشاء بغير حسابٍ)** (مريم: 37)، إذ كانت هذه الآية تدلل على تجريد العبد من القوة في الحصول على الرزق، وأن الله هو الرزاق القدير.

لكن في الاقتباس من قوله تعالى:**(وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا)**(مريم: 25) تشير وتحيل إلى جزئية التعب والجهد الذي ينتهي بنتيجة الحياة والقوة، بمعنى: يجب على الإنسان أن يقوم

بالجهد والتعب ليحصل على ما يريد، حتى وإن كان الخالق سبحانه وتعالى يرزق من يشاء بغير حساب.

ولاسيما أن الحب الصوفي عندهم لا يتحقق إلا بالجهد والمناجاة والصبر على الحب الإلهي وانتظار الفتح القلبي، وكما يقول الكلاباذي (ت380هـ): ((مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ولا يعرفها إلاّ من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات))[26].

فهم يؤمنون بأن الأجر على قدر المشقة كما يعرف في الموروث الديني، فلا يمكن للصوفي أن يكون بعيداً عن التعب ويصل إلى ما يريده القلب من الإيمان والحب والاشراق.

ويقول سليمان الدمشقي[27](ت789هـ) مستعملاً انزياح الاقتباس في الحب المحمدي[28]: (الكامل)

ليس الطريقُ سوى طـــريقِ محمدٍ فهي الصراطُ المستقيمُ لمن سلكْ

من يمشى في طرقاته فقد اهـتدى سبلَ الرشادِ ومن يزغْ عـنها هـلكْ

في هذا النص ينطلق الشاعر من الاقتباس من الحديث النبوي ليكون للمعنى قصدية الجمع والدعوة، فالصوفية لا يريدون أن يكون الاقتباس شكلياً فقط، بل يعتمد على الانسجام بين الفعل الحقيقي والفعل القولي، حتى يكون العمل الحقيقي هو الغاية التي يريد الصوفي الوصول إليها.

فعمد الشاعر إلى الاقتباس من حديث الرسول الكريم **(تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاّ هالك)**، لتكون المناسبة هي الأساس، أي: الرغبة في جعل الإفادة من الحديث غاية الاقتباس، وهي أن الدعوة المحمدية قدمت للبشرية العفة والطهارة والإيمان، وكأن الشاعر يريد أن يقوم بتذكير الناس والغافلين منهم بالتحديد.

وهذا يرجع للمشاكل التي شاعت في العصر المملوكي وبالتحديد انحراف بعض الناس عن الطريق الصحيح فلا ((يذهب بنا الظن أننا ننكر ذلك، أو نحاول إنكاره فهذه قضية تثبت عقلاً واستنباطاً حتى وإن لم يقررها نص أو كتاب أو سنة... وما أظن إلحاح الشعراء عليها في ذلك العصر إلاّ ثمرة من ثمار الجدل الديني (الناتج عن الحروب) والذي كان يموج به المجتمع -آنذاك- ولم تكن المدائح النبوية إلاّ تأكيداً لهذه القضية وإلحاحاً عليها))[29].

وفي نص آخر يقول شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان القرمي التركستاني[30] (ت788هـ) مستنداً على الاقتباس القرآني[31]: (البسيط)

أسيرُ وحـــــدى بلا مـاءٍ ولا زادِ إلى الحمى مستهاماً ظامئاً صـادي

ولا رفيقٌ ولا خـــــــلٌ يؤانسني خلعتُ نعلي على شاطيء الــوادي

أدنانيَ الحبُّ منه ثـــــم قربني كقابِ قوسينِ أو أدنى وذا الهــادي

فبعد أن وصف الشاعر معاناته في البعد عن المحبوب، ذكر السير وحده وعدم وجود من يخفف عنه ألم الوحدة والانتظار، وألم الوحدة وألم الانتظار يريد بها ألم الحب الإلهي الذي يقدمه في أبياته بطرق العذاب والمعاناة لا بطرق بيان اللذة والجمال، حتى في البيت الثالث ينتقل إلى اقتباس النص القرآني **(كقابِ قوسينِ أو أدنى)** من (سورة النجم :9).

ويجعل هذه النص القرآني دليل قرب اللقاء والاهتداء إلى جادة الصواب والوصول إلى مبتغاه من تحمل ألم الوحدة والحب معاً، وبهذا قدمت هذه الأبيات نصّاً حكائياً تحدث الشاعر فيه عن اغترابه ووحدته وعدم وجود المؤنس، ثم انتقل في اقتباس النص القرآني إلى انفراج الهم وذهاب الوحدة.

فالصوفية يريدون من اقتباس النصوص القرآنية تأكيد المعاني التي ينادون بها، ويحاولون اقناع المجتمع بهذه المعاني، وبالتحديد أن المجتمع قد شكل حالة من الشدّ والإشكالية معهم، فكان اللجوء إلى اقتباس النصوص القرآنية جزء من وسائل الاقناع والتأكيد وصدق الأفكار التي يقولون بها.

المبحث الثاني

الاقتباس من الحديث النبوي

يقول الشيخ أحمد الحلبي(ت803هـ) في المدائح النبوية مستعملاً انزياح الاقتباس[32]: (مجزوء الرمل)

يا رســـــــــــولَ اللهِ كنْ لي شافعاً فـــــــــي يومِ عرضي

فأولوا الأرحـــــــــــامِ نصاً بعضهم أولـــــــــــى ببعضِ

إن الشاعر في النص يقتبس من الحديث النبوي قوله (صلى الله عليه وسلم) **(وإنّي اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة)**[33]، فيقدم الشاعر معنى الرحمة الذي هو من صفاته (صلى الله عليه

وسلم)، ويحاول أن يقدم البشرى بشفاعته ومكانته وكيف أنه أرحم الناس وأكثرهم حرصاً على نجاتهم ودخولهم الجنة.

ثم ينتقل إلى الاقتباس من قوله تعالى **(وأولي الأرحام بعضكم أولى ببعض)** الانفال: 75، في دعوة صريحة إلى المحبة وتعزيز العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، وبالتأكيد (صلة الرحم) التي تعد من الأخلاق الإسلامية، وفي الوقت نفسه وسيلة من وسائل نشر المحبة والتعاون والأخوة بين ابناء الدين الواحد.

وهذا لا يكون من فراغ بل يحتاج إلى الصبر والمكابدة إذ ((أعلى مرتبة في حب الإيمان أن تصير إلى ما صيرك إليه ربك سبحانه وتعالى فأقامك على مودته، ومودة من ودّ سبحانه، فقال سبحانه وتعالى (إنّ الذين أمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً) مريم : 96))[34].

فهذا النص كان دعوياً أكثر من البحث عن الاقتباس فقط، فالشاعر يريد خدمة المسلم، والخروج به إلى حياة الحب والأمل، فالصوفية يبحثون عن الكمال في الحب عن طريق الاستناد على القرآن الكريم.

الخاتمة

1-الشعر الصوفي المملوكي زخر بالاقتباسات وكان وسيلة من وسائل التأييد التي يستعملها الصوفي داخل نصّه الشعري، إذ يقدم الفكرة ويأتي بما يؤيدها من الكتاب والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين، فكان اقتباسهم كثيفاً وأسلوبهم دقيقاً ومؤدياً للغاية التي ينشدونها.

2-الاقتباس من الأساليب البديعية التي تعتمد على استحضار النصوص القرآنية لتحقيق التأثير المطلوب في المتلقي، والشاعر الصوفي استعمله في سياق التعضيد للمعاني الصوفية من جهة، وبيان الثقافة اللغوية العالية التي يتمتع بها شعراء الصوفية في العصر المملوكي من جهة أخرى.

3-يتضح أن الشاعر الصوفي كان يعمد إلى الاقتباس للوصول إلى الحقائق الصوفية والجزئيات التي تغذي أرواحهم بهذا الحب الجارف، فبرز من طريق الاقتباس الحرارة التي كانت في صدورهم، والعذاب الذي أرهق قلوبهم.

4- استعمالهم للاقتباس لم يكن في هدفٍ واحد بل تعددت الأهداف عندهم فتارة في الحب الإلهي، وتارة أخرى في الفلسفة الصوفية القائمة على البحث في دقائق الأمور والنفاذ إلى حقائقها الخفية.

الهوامش

(1) لسان العرب، مادة (قبس).

(2) نهاية الإيجاز، 112.

(3) حسن التوسل، 323.

(4) الفوائد، 117.

(5) الجوهرة المضيئة، الدسوقي، 114.

(6) معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، 69.

(7) مريم: 57.

(8) الجوهرة المضيئة، الدسوقي، 114.

(9) شيخ سعيد السعداء بالقاهرة وقد وليها بعده شمس الدين الأيكي مدرس الشبلية وله تصانيف مفيدة وكثيرة ونظم حسن توفي يوم السبت ثالث رمضان وصلي عليه بعد العصر بالجامع المظفري ودفن بالسفح، ينظر: البداية والنهاية، 306/13.

(10) البداية والنهاية، 13/ 306.

(11) الضحى: 6_7.

(12) ديوان ابن الخيمي، 300.

(13) ديوان ابن الوردي، 183.

(14) الحداثة المقلوبة _ نقد النقد الأوربي حول مفهوم الدين وماهية الفلسفة وإيديولوجيا العلم_، 85.

(15) يس: 1_2.

(16) طه: 1_2.

(17) ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقي، 82.

(18) المصطلح الصوفيّ من شعرية التآلف إلى شعرية التضاد، 92.

(19) ديوان البوصيري، 222_223.

(20) الأنبياء: 107.

(21) المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، فوزي أمين، 312.

(22) الاغتراب في تراث صوفية الإسلام_ دراسة معاصرة، 71.

(23) نشر المحاسن الغالية، اليافعي، 123.

(24) قانون البلاغة، 453.

(25) نشر المحاسن الغالية، اليافعي، 79.

(26) التعرف لمذهب أهل التصوف، 105.

(27) الحافظ سيف الدين بن سليمان بن يوسف بن مفلح بن أبي الوفاء الياسوفي الدمشقي الشافعي كان مشهوراً بالذكاء سريع الحفظ دأب في الاشتغال رافق كثير من العلماء الأفاضل، ينظر: شذرات الذهب، ابن العماد، 6/ 307.

(28) شذرات الذهب، ابن العماد، 6/ 308.

(29) المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، 184.

(30) محمد بن أحمد بن عثمان بن عمر التركستاني نزيل الشيخ شمس الدين القرمي العابد المشهور نزيل بيت المقدس ولد سنة (720هـ) ثم تجرد وخرج منها سنة إحدى وأربعين فطاف البلاد ودخل الحجاز واليمن ثم أقام بالقدس وبنيت له زاوية وكان يقيم في الخلوة أربعين يوماً لا يخرج إلا للجمعة وصار أحد أفراد الزمان عبادة وزهداً وورعاً توفي سنة (788هـ)، ينظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 8/ 520.

(31) شذرات الذهب، 6/ 303_ 304.

(32) شذرات الذهب، ابن العماد، 7/ 23.

(33) جامع الأحاديث الجامع الصغير وزوائِده والجامع الكبير، 2/ 377.

(34) دلائل الإيمان، أحمد عبده عوض، 31.

المصادر والمراجع

1- الاغتراب في تراث صوفية الإسلام _ دراسة معاصرة _، عبد القادر موسى المحمدي، دار الحكمة، بغداد، ط1، 2001م.

2- البداية والنهاية، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو ابن كثير (ت774هـ)، مكتبة المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1977م.

3- التعرف لمذهب أهل التصوف، أبو بكر محمد الكلاباذي، تحقيق: محمود أمين النواوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط1، 1996م.

4- جامع الأحاديث الجامع الصغير وزوائِده والجامع الكبير، جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي (ت911هـ)، قسم الأقوال، جمع وترتيب: عباس أحمد صقر، أحمد عبد الجواد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

5- الجوهرة المضيئة في سلوك الطالب ونصح البرية، الدسوقي (ت676هـ)، مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة.

6- الحداثة المقلوبة_ نقد النقد الأوربي حول مفهوم الدين وماهية الفلسفة وإيديولوجيا العلم_، رواء محمود حسين، المركز العلمي العراقي، بغداد، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط1،2011م.

7- حُسن التوسل في صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي (ت725هـ)، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة بغداد، 1400هـ _1980م.

8- دلائل الإيمان، أحمد عبده عوض، ألفا للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 1433هـ _ 2012م.

9- ديوان ابن الخيمي، ابن الخيمي، (د.ط) (د.ت).

10- ديوان ابن الوردي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 1427هـ _ 2006م.

11- ديوان البوصيري، تحقيق: محمد سيد كيلاني، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، 1973م.

12- ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقي، تحقيق: محمد أديب الجادر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1340هـ_ 2009.

13- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت1089هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

14- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، القاهرة، 1327هـ.

15- قانون البلاغة، أبو طاهر محمد بن حيدر البغدادي (ت571هـ)، مطبوع في رسائل البلغاء لمحمد كرد علي، القاهرة، ط4، 1374هـ_ 1954م.

16- لسان العرب، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت711هـ)، ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، 1979م.

17- المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، فوزي محمد أمين، مكتبة الآداب، جامعة الاسكندرية، 1980م.

18- المصطلح الصوفيّ من شعرية التآلف إلى شعرية التضاد، أحمد أبو زيان، مجلة فكر وإبداع، مصر، ج67، 2012م.

19- معالم الرمزية في الشعر الصوفي العربي، نور سلمان الجامعة الامريكية في بيروت، 1954م.

20- نشر المحاسن الغالية، في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي (ت768هـ)، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط2، 1410هـ_ 1990م.

21- نهاية الايجاز في دراية الاعجاز، فخر الدين الرازي، القاهرة، 1317هـ.